عرفت هـؤلاء

بقلم :
انور السادات

أخيرا امضيت فى معتقل « ماقوسة » بالمنيا عاما كاملا .. وكانت فرصتى الوحيدة لاستنشاق الهواء خارج المعتقل هى زيارة مكتبة المنيا الواقعة على الكورنيش بمصاحبة احد الحراس .. وخلال احدى زياراتى للمكتبة فوجئت بصديق قديم كان معى فى تشكيل الضباط الاحرار يقترب منى ويسلم على ... ولم يتدخل الحارس وتركنا فى حديثنا الخاص ... ومال صديقى على أذنى وهمس بكلمات قليلة كان لها وقع السحر فى نفسى ...

فى ليلة القدر واجهت قدرَى

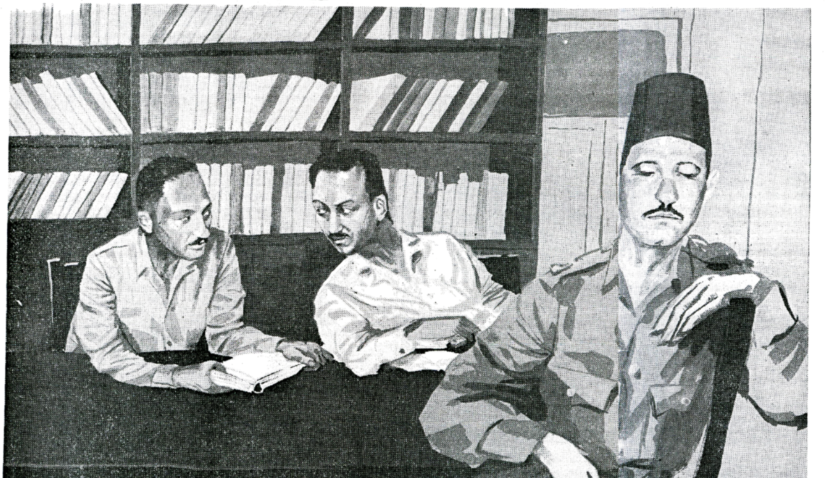

كانت « ليلة القدر » بداية مرحلة هامة فى حياتى ..

ففى ليلة القدر ـ ليلة ٢٧ رمضان ـ ابلغونى وانا فى ميس الضباط بانه صدر النطق السامى بالاستغناء عن خدماتى فى الجيش !! وجاء البوليس السياسى ونقلنى الى سجن الاجانب ، الذى رفضت قبل ذلك دخوله محتميا بحصانتى العسكرية .

ودخلت سجن الاجانب .. وكأننى ادخل الى المجهول .. لا اعرف ماذا ينتظرنى هناك ؟

وما هو مصيرى ؟

لقد اصبحت ـ بعد فقدان حصانتى العسكرية ـ تحت رحمة السلطات الانجليزية تماما .. حقا لم يكن هناك دليل ضدى ولا حكم بسجنى .. ولكن كنت معتقلا بأمر الانجليز .. وهذا هو اصعب موقف يمكن ان يتعرض له مواطن فى بلد محتل .

وكانت ليلة دخولى سجن الاجانب هى ليلة القدر .. وتصورت لحظة دخول السجن ان الدنيا كلها تظلم من حولى . ولكن اكتشفت بعد ذلك ان النور ينبثق دائما من قلب الظلام .. والامل يولد من رحم اليأس .. وقد اراد الله ان يمتحننى فى هذه الليلة العظيمة .. واختار لى ليلة القدر بالذات لكى ارى قدرى الذى رسمه لى بعد سنوات طويلة

وفى السجن بدات حياتى تأخذ طابعا جديدا .. دخلت الزنزانة رقم « ٥ » بالدور الاول ، واغلق ورائى باب ثقيل يفصلنى عن العالم وعن نور الشمس .. وكانوا يسمحون لنا « بفسحة » « مرتين فى اليوم لمدة ربع ساعة نتمشى خلالها فى ردهة السجن .. وفى نهاية الاسبوع كنا نخرج من الزنازين للاستحمام بالمياه الساخنة .. وبدات اتأقلم مع هذه الحياة الرتيبة ..

كنا فى اواخر عام ١٩٤٢ .. وجاء اكتوبر ومعه البرد .. ولم اكن حتى هذا الوقت املك « روب » شتويا .. كنت استعمل « العباية » فى الشتاء .. وفوجئت بروب يصلنى من خارج السجن واسعدنى هذا الروب سعادة كبيرة تتجاوز قيمته المحدودة ..

كنت اعيش داخل السجن بجسمى فقط .. أما عقلى فكان يلاحق الأحداث الخطيرة التى تجرى خارج اسوار السجن .. كانت امالى معلقة بالحرب الدائرة فى العلمين بين القائد الالمانى روميل « ثعلب الصحراء » ومونتجمرى قائد قوات الحلفاء .. وكان روميل قد نجح قبل ذلك فى اكتساح قوات الحلفاء من ليبيا حتى العلمين بلا توقف .. وكان قد مزق فى زحفه الجيش الثامن البريطانى تمزيقا كاملا وبشكل قل نظيره فى التاريخ العسكرى

وكان املنا ان ينجح روميل فى اكمال مهمته وفى الاجهاز على قوات الحلفاء .. حتى تنهار السلطات الانجليزية التى اعتقلتنا .. وتنفتح امامنا ابواب المعتقل

جاءتنا الصحف فى نوفمبر ٤٢ تقول ان مونتجمرى بدأ هجومه على القوات الالمانية والايطالية وكانت نتيجة المعركة تبدو واضحة لكل من يفهم فى العلوم العسكرية .. فقد كانت قوات القائد الانجليزى تتفوق على القوات الالمانية والايطالية بنسبة عشرة الى واحد .كذلك نجح الحلفاء فى قطع الامدادات عن قوات روميل وخصوصا البنزين الذى بدونه تصبح الدبابات قطعا من الحديد البارد .

وبدأ مونتجمرى هجومه بضربة مدفعية مكثفة لاحداث ثغرة فى قوات روميل .. واصبحت المدفعية التى حشدها مونتجمرى فى حرب العلمين مضرب الامثال فى التاريخ العسكرى ، ولا مثيل لها الا المدفعية المصرية فى حرب اكتوبر .. ولكن الفرق بيننا وبين مونتجمرى ان القائد الانجليزى كان يحارب على جبهة طولها حوالى ٣٠ كيلو مترا من البحر وحتى منخفض القطارة .. اما جبهتنا فطولها ١٨٠ كيلو مترا من بورسعيد الى السويس .

وكان جيش روميل يتكون من قوات المانية فى الشمال وقوات ايطالية فى الجنوب .. وكان مونتجمرى مدركا لطبيعة الفرق بين القوات الالمانية والقوات الايطالية ولذلك ركز ضغطه على القوات الايطالية ونجح فى فتح ثغرة فى المنطقة الجنوبية واستسلمت له فرق باكملها من القوات الايطالية .

ومع ذلك لم يستطع مونتجمرى ان يضرب لروميل دبابة المانية واحدة ، لانه استطاع ان ينسحب سليما من العلمين الى تونس الى جنوب ايطاليا دون ان يلحق به القائد الانجليزى .. ولهذا فنحن فى التاريخ العسكرى نعتبر روميل هو الذى انتصر فى العلمين لانه رغم تفوق قوات الحلفاء ورغم انقطاع الامدادات استطاع ان يحتفظ باسلحته سليمة .

وعندما وصلتنى اخبار معركة العلمين وانا فى سجن الاجانب احسست ان املى فى الخروج من المعتقل قد تبدد .. وزاد من حزنى ما سمعته من اخبار اعتقال عزيز المصرى فى نفس اليوم الذى اعتقلت فيه .. فقد كان الجاسوس الالمانى « ابلر » قد قال فى اعترافاته بانه لم يقابل انور السادات وصديقه الطيار فقط ، بل زاد على ذلك ان انور السادات اصطحبه لمقابلة عزيز المصرى .

ولم يحضروا عزيز المصرى الى سجن الاجانب مثلنا بل ارسلوه الى « قره ميدان » .. وكان الرجل قد تجاوز الستين من عمره وصحته ليست على ما يرام .. فنقلوه الى مستشفى السجن فى « قره ميدان » ..

ورغم كراهيتى لقوات الاحتلال الانجليزى التى استعمرت بلدى ، وكراهيتى لتشرشل الذى سلب بلدى حريتها وسلبنى حريتى الشخصية ، فان ذلك لا يتعارض مع اعجابى بعظمة هذا الرجل الذى صمد فى مواجهة اقسى الهزائم .. فقد كانت اعوام ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ مليئة بالهزائم والمحن بالنسبة لتشرشل .. ولم يتغير سير الاحداث بالنسبة لانجلترا الا فى معركة العلمين فى نوفمبر ١٩٤٢ .

وقد كانت قمة المأساة بالنسبة لتشرشل عندما اصدر اوامره لخمسين الفا من الجنود البريطانيين بالاستسلام للاعداء فى سنغافوره .. وكان قرار الاستسلام المرير هو البديل الوحيد لتعرض هؤلاء الجنود لمجزرة بشرية . ولم يواجه تشرشل مرارة الاستسلام فقط .. بل انه واجه ايضا ثورة البرلمان البريطانى الذى طالب بالتحقيق فى هذه المأساة ووقف تشرشل بمنتهى الشجاعة فى مواجهة اعضاء البرلمان وقال لهم ببساطة

ـــ اسمعوا .. قبل ان تنتهى المعركة لا اسمح بأى كلمة . وحسابنا فى نهاية الحرب وبالفعل سكت اعضاء البرلمان انتظارا لنتيجة الحرب النهائية .. وقد جاءت هذه النتيجة فى صالح تشرشل .. وكانت معركة العلمين ـ التى كنت اتابعها من وراء اسوار السجن ـ هى نقطة التحول لصالح تشرشل والحلفاء

وخلال اشتعال المعارك فى العلمين .. فوجئت بادارة السجن تقول لنا اجمعوا كل متاعكم واستعدوا للرحيل كان هذا الامر المفاجىء بمثابة الحجر الذى القى فى بحيرة راكدة فأثار دوائر عديدة من القلق والاهتمام والترقب . جمعنا امتعتنا .. وحاولنا ان نسأل الى اين الرحيل ؟ ولم نتلق اجابة على سؤالنا كما هى العادة فى السجون . وكانت كل امتعتى هى « الروب » الشتوى الذى تلقيته وانا فى السجن!!

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا فتحوا ابواب الزنازين وقالوا لنا تحركوا

وصعدنا الى مكتب مأمور السجن وكان مالطى الجنسية واسمه هيكمان وفى مكتب المأمور سلمونا اشياءنا الخاصة الممنوع الاحتفاظ بها فى الزنزانة وهى رباط الجزمة والكرافتة والامواس .. وهى الاشياء التى يمكن استخدامها فى الانتحار .. كذلك سلمونا النقود التى تركناها فى الأمانات .. ووقعنا على استلام هذه الاشياء .. ثم خرجنا الى باب السجن .

وعلى باب السجن كانت تنتظرنا سيارة بيك اب تابعة للبوليس .. وجميع نوافذ وابواب السيارة مغطاه بالبطاطين بحيث لا ترى الشارع ولا يراك من فى الشارع .. ودخلنا السيارة وجلسنا وبجانبنا الحرس .. وعندما تحركت السيارة لم نستطع ان نحدد هل تتجه شمالا او جنوبا او شرقا او غربا لان جميع النوافذ كانت مغطاة بالبطاطين .. وقبل ان نحاول التخمين الى اين سنذهب كانت السيارة قد توقفت بنا .. ولم تستغرق الرحلة اكثر من ثلاث دقائق . وعندما رفعوا البطاطين اكتشفت اننا على رصيف قطر الصعيد .. وكانت المسافة من سجن الاجانب الى محطة مصر لا تستغرق الا دقائق محدودة بالفعل .

وكان فى انتظارنا على رصيف الصعيد ديزل صغير يتكون من عربتين فقط .. وكان هذا النوع من القطارات الصغيرة الذى لا نعرفه الان موجودا فى مصر فى تلك الفترة .

دخلنا الديزل ونحن نسأل : الى اين؟ ولم يجب علينا احد .. ولكن كنا مطمئنين على الاقل الى اننا ذاهبون الى الصعيد .

وجلسنا فى القطار وبجانب كل واحد منا عسكرى .. وفى الكرسى المقابل معتقل أخر وبجانبه عسكرى .. وعلى الابواب اكثر من عشرين عسكريا للحراسة .

وبعد ان تحرك القطار قالوا لنا اننا فى الطريق الى المنيا وان هناك « معتقلا » جديدا افتتح فى بلد اسمها « ماقوسه » بجوار المنيا ، وانهم يجمعون فى هذا المعتقل نزلاء سجن الاجانب وسجن الزيتون .. ولم يتوقف الديزل الا فى محطة المنيا ..

وكان بوليس المنيا قد أخلى المحطة من المواطنين حتى لا يرانا احد .. ولم نجد فى انتظارنا الا قوات الامن والسيارات المغطاة بالبطاطين كالعادة .. وتحركنا بالسيارات من المنيا الى « ماقوسة » التى لم تكن تبعد اكثر من اربع دقائق .. ووقفت بنا السيارات امام « سراية فاخرة » سراية مقامة فى وسط القرية .. وفوجئت بضابط زميلى من سلاح المهندسين يقوم هو وجنوده بضرب نطاق من الاسلاك الشائكة حول السراية ..

امرونا بالنزول من السيارات والصعود الى السراية .. ولم نصدق ان هذا هو السجن الذى ينتظرنا فى اعماق الصعيد .. لم يكن احد منا قد عاش فى قصر فاخر كهذا طوال حياته .. كانت جميع الادوات المستخدمة فى بناء هذا السجن مستوردة من الخارج .. الادوات الصحية .. مقابض الابواب .. السلالم المصنوعة من الباركيه ، ولم نكن قد رأيناها فى اى مكان قبل ذلك .. الزجاج الملون !!

وعرفنا فيما بعد قصة هذا السجن الاسطورى .. فقد كان ملكا لرجل من اعيان البلد اسمه « الماقوسى » .. وقد بناه خصيصا لكى يستقبل فيه « عروسه » التى تنتمى الى عائلة سلطان .. وهى من اكبر عائلات المنيا .. ولم يكن الرجل يتصور ان « عش الزوجية » الذى استورد كل معداته من الخارج سيتحول يوما ما الى معتقل يضم اعداء سلطات الاحتلال البريطانى .

وكان التناقض بين « سراية الماقوسى » وما حولها من مبان يدعو للسخرية .. فقد كانت كل مبانى القرية مبنية بالطين .. وفى وسطها « السراية » وكأنها قطعة من أوروبا انتقلت الى قلب الريف المصرى .. وكان يحيط بالسراية حديقة جميلة وفى وسطها كشك خشبى ..

وعندما زرت المنيا فى العام الماضى ذهبت لالقى نظرة على « سراية الماقوسى » التى عشت سجينا فيها فترة من شبابى .. فوجدت الحديقة والكشك قائمين حتى اليوم .. اما السراية فقد ضاعت مع الزمن .

ومازلت اذكر الزجاج الملون ـ الذى يعكس اشعة الشمس الى داخل السراية ـ وكيف كنا نجلس بالقرب منه انا وزملائى المعتقلين فى الشتاء لكى نستمتع بشمس الصعيد الدافئة .

وكان معى فى « سراية الماقوسى » او « سجن الماقوسى » الشيخ الباقورى ـ الله يمسيه بالخير ـ وعبدالوهاب حسن المحامى .. وانضم الينا معتقلون من الازهر من بينهم الشيخ دراز الله يرحمه واثنان من كبار ضباط الجيش .. وكان النحاس باشا هو الذى اعتقل الضابطين .. عندما جاء الى الحكم فى ٤ فبراير اعتقلهما .. وعندما اقيل فى ٨ اكتوبر تم الافراج عنهما وعادا الى الجيش .. اما انا فقد ظللت فى السجن بعد اقالة النحاس لاننى كنت معتقلا بأوامر السلطات الانجليزية .. ولم تفرج عنى هذه السلطات ولكنى هربت من السجن كما سأشرح فيما بعد .

وقضيت فى سجن ماقوسة سنة باكملها .. وكانت وسيلة الترويح الوحيدة بالنسبة لنا هى أن نذهب الى مستشفى المنيا بحجة العلاج .. وكان بيننا وبين المستشفى اربع دقائق بالسيارة .. وكانت هذه الدقائق هى فرصتنا لاستنشاق الهواء خارج السجن .. واكتشفنا بعد ذلك انه توجد مكتبة فى المنيا على الكورنيش وانه يمكننا الذهاب اليها بمصاحبة الحرس .. ولم تصبح المستشفى هى وسيلة الترويح بل اضيفت اليها المكتبة .

وكانت نزهة المكتبة افضل بالنسبة لى من نزهة المستشفى ، لانها كانت تقع فى آخر الكورنيش ، فكنت اقطع الكورنيش بأكمله فى الطريق اليها .. وكنت بعد ذلك استمتع بالقراءة بعض الوقت ثم استعير كتابا واعود به لاقراه فى السجن .

وظللت اتردد على مكتبة المنيا بانتظام الى أن وقعت المفاجأة التى لم أكن أتوقعها .. كنت فى احدى زياراتى للمكتبة مستغرقا فى قراءة احد الكتب .. وفجأة وجدت أمامى صديقا قديما كان يوزباشى بالقوات المسلحة ومعى فى تنظيم الضباط الاحرار وكان اصلا من المنيا .

كان صديقى ـ واسمه وجيه خليل .. يرتدى الملابس الملكية حتى لا ينكشف امام الحرس .. ويبدو أنه كان يتتبع أخبارى منذ اعتقالى ، وانه علم بترحيلى الى المنيا .. وبترددى على مكتبة المدينة ، فرتب هذا اللقاء الذى يبدو انه حدث بالصدفة .

غمرتنى الفرحة عندما رأيت « وجيه » امامى .. تبادلنا التحية ونحن ننظر خلسة الى ضباط البوليس المكلفين بحراستى .. والحقيقة ان هذا الضابط وغيره من الضباط المصريين الذين تعاملت معهم طوال فترة اعتقالى كانوا مثالا للروح المصرية الصادقة .. كانوا يعلمون جيدا طبيعة الظروف الوطنية التى جاءت بى الى المعتقل وطبيعة الدور الذى اقوم به .. وكانوا يعاملوننى انا وزملائى المعتقلين على هذا الاساس .. وكانوا يساعدوننا على اقصى حد مستطاع ...لدرجة انهم كانوا يحضرون لنا بانفسهم السجاير رغم انها ممنوعة فى السجون .

وعندما التقيت بوجيه خليل فى مكتبة المنيا تركنا ضابط الحراسة نتحدث بحريتنا ، ولم يتدخل ليسأل من هو الشخص الذى يحدثنى ، رغم ان ذلك من حقه .

وكان وجيه هو أول شخص اتصل به منذ اعتقالى .. ولم اكن ادرى على وجه الدقة ماذا يحدث لأسرتى الصغيرة .. التى تركتها بلا مورد مالى منتظم .. كنت قد فصلت من الجيش بعد اربع سنوات فقط من الخدمة ، ولهذا لم اكن استحق معاشا .. فالمعاش لا يصرف الا بعد ١٥ سنة خدمة .. ولهذا لم تصرف لى ادارة الجيش غير ٨٠ جنيها مكافأة .. وتركت هذا المبلغ المتواضع لزوجتى وابنتى اللتين كانتا تقيمان عند والدى .

وفوجئت بوجيه يميل على اذنى ويقول لى ..

ـ اسمع يانور .. زملاؤك الضباط اتفقوا وقرروا ان يجمعوا من بعضهم مبلغا معينا .. واحنا دلوقت بنوصل لعيلتك عشرة جنيهات شهريا ..

وهزتنى هذه الكلمات من الاعماق .. لم يكن مبلغ العشرة الجنيهات الذى هزنى بل المعنى الرائع الذى وراءه .. كنت قبل اللقاء المفاجىء مع وجيه خليل فى حالة نفسية سيئة .. الامل فى الخروج من المعتقل بدأ يتلاشى بعد تغيير ميزان الحرب لصالح الحلفاء .. والبلد كلها فى قبضة محتل غاشم وحكومات متعاونة معه .. واسرتى الصغيرة فى مهب الريح .. وجاءت كلمات وجيه الصادقة لتنتشلنى من وهدة اليأس .. وتؤكد لى اننى لا اقف وحدى معلقا فى الهواء .. وان ما فعلته

اننى لا اقف وحدى معلقا فى الهواء .. وان ما فعلته

من أجل بلدى لا يمكن ان يضيع هباء .. فهناك اصدقاء وزملاء يتتبعون اخبارى .. ويبحثون عن عائلتى ويحاولون مساعدتها بقدر المستطاع .. كان المعنى الحقيقى لكلمات وجيه خليل ان مصر لا يمكن ان تنسى ابناءها مهما احاطت بها من ظروف صعبة .

وعدت الى سجن ماقوسة وانا اكثر قوة وعزما على الاستمرار فى الطريق .. كل ذلك بفضل الكلمات التى همس بها وجيه خليل فى اذنى .

رحم الله وجيه خليل .. فقد استشهد بعد لقائنا بخمس سنوات فى حرب فلسطين .

أنور السادات